بسم الله الرحمن الرحيم

المقالة العلمية : **فلسفة الاجتماع الديني في تفسير التاريخ**

أ. د . ندى موسى عباس

المتعارف عليه ان الظاهرة الدينية (سماوية او وضعية) تستمد سماتها وطابعها من بيئتها المدنية ومجتمعها الحضاري(في كل مجالات الحياة العامة والخاصة)، حيث تعكس رمزيتها الجمعية العامة في خطاباتها ومعالجاتها الحياتية وحتى في تعبيراتها اللغوية؛ و بما انه لا ديانة بدون مجتمع ولا مجتمع دون ديانة؛ لذا فقد شكل الدين الهوية الروحية والثقافية والفلسفة الحياتية للمجتمعات الحضارية واحتلاله الموقع الاستراتيجي لها، لكونه العامل المحرك والمؤثر في الوقائع التاريخية(الاجتماعية والسياسية والاقتصادية)، لاسيما عند المجتمعات التي تسود بها قوانين(دستور) الاعراف والعادات والتقاليد؛ اذن فالديانة هي بمثابة الضوابط الملزمة وحتى المقدسة لضبط سلوكيات الافراد. وهذا ما قصده المفكر اركون بقوله: " التاريخ لا تحركه فقط الماديات، وإنما تحركه أيضا الروحانيات والتصورات والخيالات، وكثيرا ما تتحول هذه الاخيرة الى عوامل ضاغطة لا تقل تأثيرا عن الاولى، وهذا ان لم تزد في بعض المنعطفات التاريخية الخاصة" .

يبدو واضحاً لدى المؤرخين والباحثين بعلم الاجتماع انه ليس من المنطق ولا من العقلانية التغافل عن البعد الديني أو تجاوزه في ابحاثهم وكتاباتهم! وهذا الفهم لأهمية ودور الدين كان شائعا منذ القدم؛ فعلى سبيل المثال نجد في عهد أردشير الذي احبه العرب واقتبسوا منه نصوصه؛ هناك علاقة وثيقه بين الدين والدولة ومثال ذلك ما جاء به ان " الدين والمُلْكُ توأمان لا قِوام لأحدهما إلا بصاحبه؛ لأن الدين أُسٌّ ولابد للمُلْكُما أُسِّه، وما لا أُسَّ لهُ مهدوم "، وكذلك نجد ان من بين اهم ملاحظات الكاتب الكبير الجاحظ (159– 255 هـ/776– 868 م) هي في وقوفه عند ظاهرة التدين ومسألة التفقه بالدين وبيان أبعادها في عصره، لقد شخص الجاحظ هذه الامور الاجتماعية بدقة لقربه الشديد من طبقات المجتمع العامة ومحاكاته لها ولا سيما الفئات الفقيرة فيها، وقد أشار الى المكانة الاجتماعية المعنوية والمنزلة الأكثر رفعة للمتدين وللمتفقه في الدين، وغدا صاحبهما اعلى مرتبة من صاحب الدخل العالي والثروات والاملاك العقارية، فيما أكد الفيلسوف والمؤرخ أبن مسكويه (320–421 هـ/932– 1030م) من الناحية الاخرى على ضرورة اجتماع الناس في المناسبات الدينية العامة (اليومية والدورية والموسمية) كالصلاة والحج والاعياد، لكونها مصدرا للوعي الاجتماعي الموجه للالتزام بالمحبة والمودة والشرائع والتقاليد ! كذلك تنبه الفيلسوف والمؤرخ التونسي أبن خلدون (808هـ/1406م) وهو يصوغ نظرياته في التاريخ والاجتماع لقيمة التأثير الديني، عندما بادر الى تقديم تفسير وتعليل لمجريات الوقائع التاريخية فعد الظاهرة الدينية جزء لا يتجزأ من التاريخ، لا بل هي قاعدة من قواعد بناء هيكلية المجتمعات البشرية، ومن الامثلة على ذلك انه ربط بين انهيار بعض الدول وبين انحلال التمسك بالدين " إذا تحللت صبغة الدين وفسدت" وفي الحروب فان الديانة تعزز التماسك بين افراد الجيش اكثر من العصبية والقومية، وتوحدهم في سبيل البذل والتضحية بدلا من الخوف من الموت لأن " الصبغة الدينية

تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أصل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق" حتى ان من الحروب الكبرى في التاريخ ما يكون الدين هو سببها !

لوحظ ان الانسان قد تكون لديه لحظة من لحظات حياته نقطة تحول نفسية هامة ربما حددت له مفاهيمه الدينية والايمانية والاخلاقية، وقد تشكلها مخاطر أو حالة قلق وخوف يمر به، ليكون الإيمان والتدين هو ما يمنحه " الأمن والطمأنينة وينزل السكينة والراحة على قلبه ويحرره من القلق والتفكير والتشوش "، ومن طريف ما يذكر هنا ان احد فلاسفة الهند سال الفيلسوف اليوناني سقراط (384-322 ق.م) ان يحدد فلسفته؛ فأجابه قائلاً : " أنها دراسة الحقائق الإنسانية "، وهنا انفجر الفيلسوف الهندي ضاحكا قائلاً له : " كيف لأنسان ان يدرس الحقائق التاريخية وهو يجهل الحقائق الإلهية السماوية " !

****

المصادر والمراجع :

1- أبن خلدون: المقدمة .

2- أركون، محمد: قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم ؟، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الرابعة، سنة 2009 م، ص 144 .

3- السواح، فراس: دين الأنسان، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، الطبعة الرابعة ، 2002 م، ص 112 .

4- بلعقروز، عبد الرزاق: عودة المكبوت الديني في الثقافات المعاصرة ، مجلة قضايا معاصرة مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، العدد 43 – 44، السنة 14، 1431 هـ/ 2010 م، ص 4 .

5- حب الله، حيدر: مسألة المنهج في الفكر الديني وقفات وملاحظات، الانتشار العربي، الطبعة الأولى، 1427 هـ/ 2006 م، ص 260 .

6- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر (ت 250 هـ/ 864 م): رسائل الجاحظ ، شرح وتعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ / 2003 م، ج 1، ص 264 .

7- يحيى، جلال: تاريخ الفكر الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، بلا رقم الطبعة، 1984 م، ص ص 84 – 85 .

8- بروديل، فرناند: تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بلا مكان الطبع بلا رقم الطبعة، 1999 م، ص 18 .

****